اوغسطينوس الأفريقي...
مفخرة الغرب

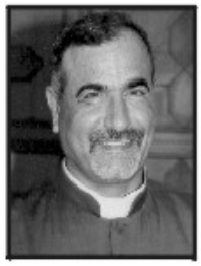

الخور أسقف بيوس قاشا

المقدمة

" ماذا أُحِب (يا رب)، حين أحبّكَ ؟ لا أُحبّ الجمال الجسدي وامتيازه الزائل، ولا أُحبّ النور الساطع الذي تعشقه عيناي، ولا أنغام الأناشيد العذبة، ولا أريج الزهور الفوّاح، ولا المنّ ولا العسل ولا الأعضاء التي تتعرض لعناق اللحم والدم. لا أُحبّ شيئاً من ذلك حين أُحبّ الله. ومع ذلك هناك نور وصوت وشذا وقوت وعناق، أحبّها حين أُحبّ إلهي... ذلك ما أُحِبّ حين أُحِبّ إلهي ". هذا هو اعتراف أوغسطينوس للقارئ، إنه نشيد حبّه، وهل أعظم من الحب الإلهي ؟... وبرعاية وتنظيم وزارة الثقافة والشباب التونسية وبالتعاون مع أبرشية تونس والسفارة السويسرية، أُقيم يوم الأربعاء 2004/12/15 في مدينة قرطاجة معرض بعنوان " القديس اوغسطينوس : البعد الأفريقي والشمولي " وذلك إحياء للذكرى السنوية الألف والستّ مئة والخمسين على ميلاد هذا القديس العظيم... فمَن هو اوغسطينوس ؟

بداية المسيرة

في بلدة تاغسطا الجزائرية بدأت حياته، وبالتحديد في 354/10/13 وانتهت في 430/8/28، من أب وثني يدعى بتريفيوس وأمّ مسيحية تدعى مونيكا. منذ صغره توسّم فيه والده علامات ومواهب تشير إلى حدّة ذكائه وسرعة بديهته، ممّا جعله يُدخله أفضل المدارس الرومانية للحصول على منابع العلم الشهيرة، ثم انتقل إلى قرطاجة في تونس وهو في السابعة عشرة من عمره، وهناك تلقّى علومه على أيدي أشهر فلاسفة وخطباء عصره في الفلسفة اليونانية واللاتينية، فانفتحت أمامه الحياة بكل مظاهرها وإغراءاتها، فأحبّ الحياة وأعلن قائلاً : " كنتُ أُحِبُّ

أنْ أُحِبَّ ". وبعد أن غرف الكثير من العلوم الإنسانية والأدبية وعلم الخطابة حاز على تعيين مشـرف بصفة أستاذ في البلاغة في ميلانو بإيطاليـا، فكان لهذه المدينة الأثر الكبيـر في تطويـر فكره وتغيير مجرى حياته كلّيًا.

عماذ ولكن متأخر

إن عماذ اوغسـطينوس أُجِلَّ لأكثر من اثنين وثلاثين عامًا وذلك لأسـباب منهـا : حبّه للحيـاة وبكل إغراءاتها، وأخرى لعدم اهتمامه بحكايات أمّه، تلك المرأة، قويـة الإيمان، بسـيطة الحياة، ولكن السـبب الأهم هو أنه كان يبحث عن جواب وجّهه المسـيح يومًا ما إلى الشاب الغني، فقد عاش شابًا مثل بقية الشـبان، ولم يكن يرفض أي ملذّة، إذ اعترف قائـلاً : " على دفعـات راحت تتصاعد فيّ الرغبـة في إشبـاع عالم مراهقتي، ولم أكن أرفض وفرة الملذات مهما كانت "، وقـال أيضًا : " لأننـي كنتُ أريد أن أساوي نفسي بأشد الرفاق فسادًا، كنتُ أتظاهر بإتيـان ما لم آته أصلاً خشـية أن أظهـر حقيرًا بقـدر ما كنتُ بالعقل بريئًا، وأن يعدّني الناس رذيلاً بقدر ما كنتُ بالفعل عفيفًا ".

زوج في غاية الأمانة

نعم، لم يكن اوغسطينوس مثالاً في الفضيلة قبل اهتدائه، ومع هذا لا يجوز أن نجعـل منه إنسـانًا فاسـدًا. فلقـد سارع، وهو ما زال صغير السن، إلى الارتبـاط بامرأة نجهـل اسمها ولَدَت له ابـنًا دعاه " أديوداتس Adeodatas " (عطا الله)، أمضى معها عمـرًا مدتـه عشر سـنوات كزوج في غاية الأمانة.

ولكن مونيكا والدته كانت تطلب منه دائمًا أن ينفصل عن زوجته، واعدةً إياه بالزواج من أخرى، فرضي ولكن لحين. ولكن الموعودة لم تكن قد بلغت سن الزواج " فاتّخذ امرأة أخرى "... وهنا كانت محطة الانتظار، إذ لم يستطع اوغسطينوس العيشَ في العالم بعد أن حُرِمَ المرأة الوحيدة التي أحبّها حبًّا حقيقيًا، وكانت هذه المحطة اهتداءً، مكرّسًا حياته لله.

على حافة الشك

عذابات الروح لم تكن أقل بلبلة من عذابات اللحم والدم، ففي مدة السنوات العشر التي قضاها مع المرأة، كان يشعر، وبسبب انتمائه إلى الشيعة المانوية، إلى الرغبة الشديدة في الكمال، تارة بأنه مبرَّر بتأكيد وجود مبدأ شرّ يبرئه من نقائصه الشخصية، وطورًا بأنه محتار بسبب الحدود التي يفرضها ذلك الشرّ على الله الذي لا يعود إليهَا بوجه تام إنْ لم يكن كلّي القدرة... بهذه الحدود وصل اوغسطينوس إلى حافة اليأس، فغادر متوجهًا إلى رومة، ولكن بعد مرور سنة وجد نفسه أيضًا وهو على حافة الشك في ميلانو التي عمل فيها كأستاذ في البلاغة.

مع أمبروسيوس

أمبروسيوس حاكم سابق على مقاطعة أميليا - ليغوريا - تصدّى لحاكم مدينة ميلانو الذي أراد أن يعيد مذبح النصر إلى قاعة جلسات مجلس الشيوخ الروماني، وقد أوصلته (أمبروسيوس) هتافات الشعب إلى الأسقفية فكان لقاء اوغسطينوس معه لقاءً غير مباشر ومهنيًا إلى حدٍّ ما، إذ أشاد الكثيرون بفصاحة أمبروسيوس وهذه ضالة اوغسطينوس، فتوجّه إلى الكاتدرائية لسماع مواعظه التي كان يقول عنها : إن جوهرها كان يثير لا فضوله، بل احتقاره... ولكن كانت هذه محطة ثابتة ليغيّر رأيه في الإيمان الكاثوليكي. فَمِنْ عاجز عن ردّ انتقادات المانويين إلى قوي بدأ يشعر ويستنكر فتور همّته في الماضي.

والعناية الإلهية...

واصلت العناية الإلهية مسيرتها عبر

حياة اوغسطينوس، ففكّر في القيام برياضة فكرية وروحية دامت نحو ستة أشهر في كسيسيام، قادته إلى قبول سر العماذ على يد أمبروسيوس سنة 387، هو وابنه أديوداتس وصديقه اليبيوس.

وبينما كان متوجّهًا إلى هيونّة ليشجّع أحد أصدقائه في الطريق الروحية، كان أسقف المدينة فاليريوس يحدّث الشعب عن حاجة الكنيسة المحلية الملحّة إلى رسامة كاهن، فأمسكوا اوغسطينوس وذهبوا به إلى الأسقف ليرسمه، ولكنه كان يذرف دموعًا غزيرة إذ شعر مسبقًا بالأخطار الجسيمة والكثيرة التي ستُثقل كاهله من جرّاء قيادة الكنيسة وإدارة شؤونها. وأخيرًا حصل المؤمنون على ما أرادوه، إذ تحققت أمنيتهم، فقد قال عن نفسه : " لقد قبضوا عليّ ورُسِمْتُ كاهنًا، وقادني ذلك في آخر الأمر إلى الأسقفية "، حيث خلف الأسقف المسنّ (396).

أوغسطينوس ووالدته مونيكا
(لوحة شهيرة للفنّان آري – شيفر)

أسقف أمام التحدّيات

إن الأسقف الأفريقي كان رجلاً لا تختلف مسؤولياته عن تلك التي يقوم بها حاليًا كاهن الرعية الذي يجد نفسه مرهقًا من كثرة العمل، وكان يستأذن عند الحاجة بالتزام خطّي ليُترَك له الوقت الكافي ليُنهي تأليفاته، ولكن عبثًا، فكان يتنهد قائلاً : " إن الأسقفية لَحِملٌ ثقيل "، مشبِّهًا إياها بالأمتعة التي كان الجندي يحملها معه دائمًا، من اهتمامه بالمؤمنين، وإلقاء الوعظ، وإغاثة الفقراء، وتسوية النزاعات، عائلية كانت أو مذهبية، إضافة إلى مواجهة أصوات المعارضة من أبناء الرعية التي واجهته في مطلع خدمته،

وخصوصًا حالة السكر في الكنيسة احتفالاً بالقديس ليونتيوس، كما منع رجلاً ثريًا يُدعى بنسيانس، من أن يُرسم كاهنًا مدّعيًا أن الكنيسة تستفيد من أمواله، ولكن اكتشف اوغسطينوس أن دوافعه لم تكن سليمة، وفي هذا كله كان أقوى من أن يؤثّر فيه بعض المتطرّفين في عصره، فكان الحزم سلاحه، ولم يتهاون في محاربة البدع كالمانوية والدوناطية والبلاجية.

اوغسطينوس الكاتب

إن مَن يحصر اوغسطينوس صاحب الصحة النحيلة في أبعاد " مناضل فعّال " أو " لاهوتي عادي " يرتكب خطأً فادحًا، فإن سرّ اوغسطينوس الأعمق لا يُبحَث عنه إلا في علاقاته الحميمة بإلهه وعبْرَ كتاباته العديدة. فهو المفكّر الذي عمل تحت أنوار الروح القدس. فقد كتب اوغسطينوس 225 رسالة حُفظت من مراسلاته الواسعة، بالإضافة إلى 500 عظة ومقالات عديدة في شرح إنجيل يوحنا وشروح المزامير. وقبل وفاته بثلاث أو أربع سنوات عكف على مراجعة في مؤلّف يحمل العنوان " Retractationes " (المراجعات) وقد أُحصيت 93 مؤلّفًا تضمّ ما مجموعه 252 كتابًا، وقد تنوّع نتاجه في جميع المجالات حيث دار عقرب ساعته الثقافية من لاهوت وفلسفة وتفسير كتابي وأخلاق وتعليم ديني وردود على جميع أنواع الأسئلة، مستخدمًا فنونًا أدبية متنوعة، إضافة إلى مؤلّفات دعته الظروف إلى وضعها وأهمها : " الاعترافات " و" مدينة الله " و" المقال في الثالوث ". " فمدينة الله " من بواكير المؤلفات وهو كتاب السيرة الذاتية (397-401) ولا يقصد فيها سرد وقائع بقدر ما هو صلاة وتسبيح. فالقارئ يجد نفسه أمام نشيد ملتهب إلى الله " متأخرًا أحببتكَ أيها الجمال القديم والجديد... كنتَ أنتَ في داخلي وأنا خارجًا وهناك بحثتُ عنكَ ". أما مؤلّف " مدينة الله " (419) فما زال ينير تفكير القرون، إذ كرّس أربع عشرة سنة لتحريره وعنوانه مقتبَس من المزمور 3/86 الذي يلخّص الموضوع بالعبارة " حُبّان بنيا مدينتين : حبّ الذات حتى احتقار الله، وحب الله حتى

احتقار الذات ". والمقال في الثالوث عمل إنساني استغرق فيه وقتًا طويلاً (388-419) فيه يحدد الاعترافات ويقع عند حدود اللاهوت والتصوف، وبالإيجاز " بوشر في عنفوان الشباب وأُنجز في الشيخوخة ".

فمبدأ المؤلَّفات تجاوز المؤلَّفات نفسها، ويمكن القول بأن حياته كلها كانت امتدادًا لحادثة ميلانو. ولا بد من التذكير بأن اوغسطينوس لم يبادر إلى كتابة أحد مؤلَّفاته أو إلى الإقدام على عملٍ ما من دون أن يضع نفسه صراحةً في نظر الله، ولم يكن يقبل أن يجيب عن سؤال يتخطّى إمكاناته.

يقول الكاتب الفرنسي أندريه ماندوز عن اوغسطينوس : إذا كان ثمّة قديس استهوى كاتبي السِيَر فهو القديس اوغسطينوس، ولكن يا للأسف، فإنهم أعادوا إلينا في معظم الأحيان لا حياته أو شخصيته بل بالأحرى هذه أو تلك من الصور المشوّهة والتي ولّدتها النقوى الجاهلة والرغبة في الحث على الفضيلة. صحيح أن أوغسطينوس ليس بريئًا على وجه كامل من تلك المصائب، فقد ترك وراءه أغرب كتاب وهو أحد أكثر الكتب مبيعًا في الأدب العالمي ألا وهو " كتاب الاعترافات "، ولعلَّه شعر بعد فوات الأوان بأنّ كتابه قد يُستَعمَل استعمالاً سيئًا... واليوم تحتفل الكنيسة بالذكرى 1650 على ولادته.

هذا هو اوغسطينوس. إنه آخر كبار كتّاب اللاتينية، وثمرة أفريقيا المُرَوحَنة، ومثال للأسقف الخادم، فقد عرك الحياة وعركته، وجاهد جهادًا حسنًا. حارب في أكثر من ميدان بفكره وعقله وقلمه، حتى وفاته سنة 430.

المصادر :

* قافلة من الشهود، المركز اللوثري للخدمات الدينية في الشرق الأوسط، المطبعة البولسية 1997.

* تاريخ الكنيسة المفصل، المجلّد الأول، نقله إلى العربية الأبوان أنطوان الغزال وصبحي حموي اليسوعي، بيروت 1999.

* 200 ans. De Christianisme tome I, Paris 1975.

* إنصات راديو الفاتيكان، 14 كانون الأول 2004.